

## البحث عن حل

إيجاد حلول واضحة ونهائية وحاسمة للمشاكل الدولية أو الإقليمية أو المحلية ليس أمراً سهلاً أو عملاً ميسوراً ؛ لتعقد هذه المشاكل ، وتشابك خيوطها ، وامتداد جذورها ، وانتشار آثارها ؛ هذا فضلاً عن أن ثم أسبابا ثلاثة تعمل على تقييد رؤية الحلول الصحيحة وتغييب الحسم بشأنها ، تلك هي : المجال السياسى ، وعدم نضج الطبيعة البشرية ، وقصور الثقافة العامة مع نقص المعرفة الكونية .

فمقادير الشعوب ومصائر الأمم تُبرم وتُنقض فى ساحة السياسة ، وللسياسة قواعد للعمل وأساليب فى التصرف تخالف الأعراف المتواضع عليها بين الناس عادة ، وتجانب النظم الأخلاقية المتعارف عليها لدى الجميع ، ومن لا يعرف لغة السياسة ومفردات عملها يعجز عن التصرف ويفشل فى الوصول إلى أى نجاح ، ونتيجة لذلك فإن الواقع السياسى إما أنه لا يجيز للعمل فيه إلا من كان مؤهلاً له بسلوكيات معينة ، إما أنه يفرض على من يعمل فيه أن يلتزم هذه السلوكيات ، حتى وإن خالفت طبيعته أو عارضت أخلاقياته ؛ ومن ثم فإن العاملين فى الحقل السياسى ، غالباً ما يكونون ذوى طبائع خاصة تؤهلهم للعمل به وتساعدهم على النجاح فيه ، أو أن يتحولوا إلى أشخاص مزدوجى الشخصية ، لهم فى حياتهم العامة أسلوب خاص للعمل ، ولهم فى حياتهم الخاصة نظام آخر للعيش .

فى السىاسة من ثمّ لا يوجد مجال حقيقى لمفاهيم العدل والحق ، فنلك مفاهيم تتعلق بالحياة الفردية الإنسانية ولا تصل إلى حلبة السىاسة إلا ضمن معانى مختلفة ، وإلضافاً شرعية على واقع حاصل أو قوة مؤكدة ، ذلك أن اللغة الأساسية فى السىاسة هى لغة الأمر الواقع (Accomplished Fact) ، خاصة إذا كانت تحميه قوة رادعة ، وتذود عنه صلات كثيرة مؤثرة ، فى دوائر النفوذ العالمية أو الاقليمية أو المحلية ، حسب الأحوال .

يعنى ذلك أن مقادير الشعوب ومصائر الأمم تُبرم وتنقص ، وفقاً للأمر الواقع ، والصلات المؤثرة فى دوائر النفوذ ، بعيداً من مفاهيم الناس عن معنى الحق ، وخلافاً لتقديرات البشر عن مدلول العدل . ففى مجال السىاسة يُعدّ الحق ما وقع بالفعل ، ويعتبر العدل ما تحميه قوة مؤثرة .

وجدير بالذكر أنه فى المفهوم القانونى ، حتى فى النطاق الوطنى لأى دولة ، لا يكون للحق أى قيمة ما لم تحميه دعوى ، تُخول صاحب الحق اللجوء إلى السلطات للحصول على حكم قضائى يثبت حقه ، ثم تنفيذه بقوة السلطة ، فالأمر قريب بين كل من المجالين : الدولى والمحلى ، لا حق بغير قوة ، ولا عدل دون نفوذ .

وهذا المفهوم ليس وليد العصر الحاضر ، ولا هو نبت النظام الدولى الحالى ، لكنه واقع مؤكد على مدى العصور ، وإن بدا واضحاً فى الآونة الأخيرة ، بسبب التأكيد عاىه من جانب المفكرين والمحلّين والنقاد . ويمكن لإثبات حقيقة سريانه على مدى التاريخ ضرب أمثلة عديدة ، غير أنه يُجزئ عن ذلك ، ويكفى فى هذا المجال ذكر مثلين واضحين . فإثر الفتح العربى لمصر لم يدخل المصريون الإسلام ، بل ظلوا على مسيحيتهم مدة ثلاثة أو أربعة قرون ، حتى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى ، حين بدءوا

يتحولون إلى الإسلام زرافات ووحدانا . وفور الفتح العربى وفدت إلى مصر هجرات استيطانية كثيرة من أعراب شبه الجزيرة العربية ، وأقاموا فى الصحراء على حواف الوادى فى صعيد مصر ، الذى كان جوه يناسب الأجواء التى اعتادوا عليها ، ووضعوا فواصل وحواجز بينهم وبين أهل مصر الأقباط ، وفى الجزء الثانى من كتاب « وصف مصر » ، الذى وضعته جماعة من العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية ، بيان محقق لذلك ، يصف كيف أن هؤلاء البدو كانوا يغيرون على القرى التى يقيم بها المصريون ، فى الوادى حول النيل ، ليسلبوهم وينتهبهم ثم يعودوا إلى الصحراء فارّين بالغنائم . واقترح العلماء الفرنسيين ، للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة ، أن تقوم فى مصر حكومة مركزية قوية تعمل على دفع البدو من حواف الوادى إلى الوادى نفسه ، ليتخالطوا مع المصريين ويتعايشوا معهم ، وهو ما فعله محمد على والى مصر فيما بعد ، ومن ثم صار البدو مع الفلاحين شعباً واحداً ، وغير الأمر الواقع من الطبيعة السكانية والتقاليد السائدة فى مصر .

وفى عهد السلطنة العثمانية ، وقبل أن تتحول الخلافة الإسلامية إليها ، قام السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) بغزو القسطنطينية (بيزنطة) سنة ١٤٥٣ وحوّلها إلى عاصمة للسلطنة سماها استانبول (أو إسلام بول) وظلت مقرّاً للسلطنة الذين صاروا خلفاء المسلمين فيما بعد ، حتى نُقلت العاصمة إلى أنقرة ١٩٢٢ . ومازالت استانبول بلدًا تركيًّا ، حوله إلى ذلك ، هذا الأمر الواقع الذى حدث إثر غزوها ثم استمر .

السياسة يمارسها رجالها ، ويباشرها قادة لها وعاملون فى حقلها . وهؤلاء غالبًا ما يصدرّون فى أعمالهم عن نظر إلى صناديق الانتخاب فى

البلاد الديمقراطية أو يضعون في تقديرهم حسابات التهيج الشعبى والتدليس القولى والتعلق الجماهيرى فى البلاد ذات النظم الشمولية . وهم فى كل قول أو فعل يتصيدون تأييداً لهم من الناس ، ولو بالكذب ؛ وتعصيدها لهم من الجماهير ، وإن كان نتيجة للارتجالية ؛ ذلك أن رجل السياسة يعمل دائماً على أن يحصد فى حياته ، وربما على الفور ، نتائج عمله التى لا يرى فيها نجاحاً إلا بالوصول إلى السلطة والبقاء فيها أطول فترة ممكنة ؛ وهذا مما يخالف طبائع الأشياء ، وقد يؤدى إلى أعمال تضر بمصالح الشعوب ، على المدى الطويل ، أو تحقق كوارث للأمم نتيجة الانفعال والتسرع والجرى وراء سراب المجد الموهوم . ولتلافى هذه المخاطر ، فقد حاولت بعض البلاد الديموقراطية أن تحدد من النتائج السيئة والمدمرة لأعمال الساسة ، ومن ثم أناطت دقائق الأمور بأجهزة ومؤسسات تتكون من متخصصين وعلماء يعملون فى صمت ، وبغير نظر إلى شهرة متسرفة أو مجد متعجل ، فيرسموا سياسة الدولة فى كافة المناحى السياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية والإعلامية والعسكرية وغيرها ، بحيث لا يترك للساسة إلا أمر التنفيذ وتقدير المواءمة وتحديد الملازمة .

والطبيعة البشرية لم تنضج بعد بصورة كافية ، فلا هى نمت روحياً ولا هى سمت خلقياً ؛ والاستثناء من ذلك لم يزل فردياً ونادراً ؛ وفى هذا الصدد ، يقول الأثنارى الأمريكى ج . هـ . برستيد فى كتابه الشهير « فجر الضمير » ، إن فجر الضمير بزغ فى مصر القديمة وتوهج فيها ، قبل ألفى سنة على الأقل من ظهور العبرانيين (آباء الإسرائيليين) ، وإن البشرية لم تكد تخطو خطوة واحدة بعد النظام الأخلاقى الذى ظهر فى مصر .

بأخلاقيات الماضى البعيد ، حيث كانت البشرية محدودة ، والمشاكل

ساكنة ، والنفوس صافية ، والأماكن متباعدة ، والأطعام مرفوضة ،  
والمعلومات قاصرة ، لم تزل الناس تعالج المسائل المعقدة وتواجه المشاكل  
المتفاقمة وتعيش فى العالم الذى صار قرية واحدة . بل إن التقدير السديد  
يرى أنه نتيجة لعوامل كثيرة فقد ظهر عنصر جديد ، هو منطق التبرير  
ولغة الأيديولوجية ، قلب من شأن الأخلاقيات فى تزييف واضح وتحريف  
خطير . ونتيجة لهذه اللغة وذلك المنطق فقد أصبح الغزو يسمى وطنية ،  
والقتل بطولة ، والسرقة عمولة ، والخيانة تفاهم ، والنفاق كياسة ، والظلم  
عدالة .

وهكذا فإن مجرد مراسم شكلية ومحض تلاعبات لفظية أدت إلى  
تخطى النظام الأخلاقى ، حتى على مستوى التعامل الفردى أو الوطنى ،  
بحيث أصبح المتمسك بالأخلاق والمعنى بالضمير فردًا مغتربًا عن قومه  
وربما عن البشرية جمعاء .

فى هذا الجو المسموم بالتزييف والتحريف لأبسط القواعد وأنقى المبادئ  
تترعرع الاتجاهات المتطرفة والتزعات المتعصبة والادعاءات العدوانية ،  
ويسهل تهيج الناس وتوجيههم بالإشاعات الكاذبة والأساطير الموهومة  
والافتراءات الباطلة ، وتسكينهم فى أحلام زائفة أو توثيقهم بخرافات  
ضالة ، وليس أدل على صحة ذلك من أن كثيرًا من اليهود مازالوا يعيشون  
فى نفس الأفكار والمقولات التى عاش عليها بنو إسرائيل منذ ٣٠ قرنًا  
مضت ، وأن كثيرًا من المسلمين مازالوا يعيشون فى نفس المعارك وذات  
الشعارات التى حدثت بها الفتنة الكبرى فى الإسلام منذ ١٤ قرنًا مرت .  
هذا إلى أن الحرب العالمية الثانية التى مات فيها ملايين من الشباب والأبرياء  
قامت بسبب حرائق عنصرية أشعلها النازى بأقوال حادة وشعارات حارة ،

فلما هُزم النازى بدا الوضع كله كابوسًا مزعجًا ، لا أساس له ولا صحة فيه .

وتمّ قصور حاد فى الثقافة العامة ونقص شديد فى المعرفة الكونية . فإذا كانت الأمية الأبجدية تضرب أطنابها بعمق فى كثير من مناطق الشرق الأوسط ( كما فى مناطق متعددة فى كافة أنحاء المعمورة ) فإن الأمية الثقافية والامية السياسية تزيد عنها وتعلو عليها بكثير ؛ فأغلب الناس - سواء بين العرب أو الإسرائيليين - ليست لديهم فيما عدا ما يلزمهم لكسب العيش ، أى ثقافة حقيقية أو معلومات صحيحة ، فى التاريخ أو الاجتماع أو الفن أو السياسة أو غيرها ، وكل ما عندهم فى ذلك إشاعات غير محددة أو نثرات غير موثقة أو شذرات غير مؤكدة ، وهم فى الغالب لا يقرءون ، وإن حدث وقرءوا ولو كتابًا ، فغالبًا ما يكون من الكتب سطحية التناول ساذجة النتائج ، تتصل بموضوعات الإثارة أو ترتبط بعوامل الانفعال . وعندما انتشر التلفزيون فإنه أصبح فى بلاد العالم الثالث ، ومنها أغلب البلاد فى الشرق الأوسط ، وسيلة للترفيه وليست طريقة للتربية ، تقدم إلى جانب الترفيه برامج علمية وثقافية وسياسية ، عميقة ومبسطة وجذابة . هذا إلى أن كثيرًا من البلاد ، وخاصة تلك الشمولية ، تفرض إظلامًا ( تعتيمًا ) كاملاً على أغلب المعلومات المهمة ، سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو معرفية ، وهى معلومات يصبح من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، تكوين رأى صحيح أو تحديد فهم سليم ، بغير تحصيلها وتحليلها .

وفى نطاق الموضوع ، فإن أغلب العرب لا يعرفون حقيقة التاريخ أو الفكر أو الواقع الإسرائيلى ، كما أن أكثر الإسرائيليين لا يعرفون ذات

المسائل عن العرب . بل إن التاريخ العام لكل من أبناء الثقافة العربية وأتباع الثقافة اليهودية لم يزل ينقصه الكثير . وعلى سبيل المثال ، فإن اختفاء اللغة الهيروغلوفية ( المصرية القديمة ) والديموطيقية ( لهجتها الأخيرة ) انتهى إلى اختفاء كل الجوانب العلمية والمعنوية في الحضارة المصرية . وقد أدى فك شفرة هذه اللغة إلى معرفة الكثير من حضارة مصر القديمة ، بما أثبت وجود روابط كثيرة ومتعددة بين هذه الحضارة وبين اليهودية ، ثقافة وشريعة ( وهو ما دللنا عليه علميا في كتابنا Religion for the Future المسجل في مكتبة الكونجرس الأمريكية في يناير ١٩٩٣ ) .

أما المعلومات الكونية ، فالمعرفة الإنسانية حالاً ( حالياً ) صفر منها . ذلك بأن جانباً من هذه المعرفة ظهر لبعض الحضارات القديمة ، وأهمها مصر ، ثم تنوّل شفاهاً إلى أن اندثر بفعل عوامل كثيرة ؛ وقد أدى فك شفرة اللغة الهيروغليفية القديمة ، واجتهادات بعض العلماء ، إلى ظهور حروف غير متكاملة من هذه المعرفة ، كما يبين - على سبيل المثال - من كتاب The Great Pyramid Decoded أى : حل شفرة الهرم الأكبر ، وكتاب Her-Bak الذى يستقرئ بعض المعلومات الكونية من عقل ووجدان مصر القديمة . وفي الوقت الحالى ، فإن بعض الجهود تحاول استعاض الجهل البشرى بالمعرفة الكونية عن طريق العلم الذى يسمى ParaPsychology أو ما وراء علم النفس ، وهو علم له موسوعة ضخمة ، وله كراسى لدراسته فى جامعات ديوك بالولايات المتحدة ، ولندن ببريطانيا وموسكو بالروسيا ، وليس من شك فى أن وصول البشرية إلى معرفة كونية ، ولو أولية ، سوف يساعدها على تفهم الكثير من مشاكلها ، وإيجاد حلول لها أسلم وأفضل ، ومن هذه المشكلة ذلك الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل .

وفى هذا الصدد ، فإن تقدم علم الفيزياء أدى إلى التوصل إلى نظريات مهمة ، منها أنه فيما تحت المستوى الذرى ، فإن الجسيمات Particles تتمتع بتلقائية وذاتية ، وأن ما يبدو لنا يقيناً وحتماً ، هو فى الحقيقة احتمالات مفتوحة تلعب فيها الإرادة الإنسانية دوراً كبيراً ، ويتصل فيها كل جزئ - بما فيها الإنسان - بالكون كله . يعنى ذلك أن ما نظنه مشكلات محلية هو فى الحقيقة أمر يتصل بالجميع ، ولا يمكن حله جزئياً حلاً سليماً .

ذلك موجز لأهم العناصر التى تعوق وتعرقل الوصول إلى حل واضح ونهائى وحاسم للمسألة الفلسطينية ، وللصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل ، لم يكن ذكرها تزييداً لا مبرر له أو إطناباً لا فائدة فيه ، بل كان أمراً مهماً لوضع كافة عناصر المنظومة جنباً إلى جنب ، ما يظهر منها واضحاً للمراقب ، وما كان خفياً وراء الأحداث ، يؤثر فيها ويحكم نتائجها ، وإن لم يكن جلياً محدداً إلا بعد التحليل والتدقيق ، ثم التوصل إلى كافة جوانب المعرفة .

إذا استقام ذلك فى الفهم والتقدير ، كانت الخطوة التالية هى استجلاء أسس الشخصية اليهودية والشخصية العربية ، لتحديد دوافع كل منهما فى الصراع بينهما ، وأسلوبها فى التصرف ، ومدى تقبلها للحلول التى تحسم الصراع .

نتيجة لتاريخ طويل من عيش اليهود فى الشتات ، أقلية بين أغليات مختلفة ، يتمسكون بشريعة مغايرة لشرائع الآخرين ، ويتشربون ثقافة قد تبدو للغير غامضة أو سرية ، فقد وقع عليهم اضطهاد ثقيل ، ربما شارك

بعضهم فى استجلابه بتصرفات خاطئة ، وكانت النتيجة أن تكون لديهم شعور عميق بعدم الأمن ، على المستوى الفردى والجماعى ، سواء بسواء . وقد ظلوا طوال فترة الشتات ، أكثر من خمسة وعشرين قرناً ، يؤمنون بأن الرب سوف يرضى عليهم ويزول غضبه عنهم حين يُعيدهم إلى أرض فلسطين ، حيث يقيمون وطناً لهم ، أو دولة عندما شاع نظام الدولة الوطنية منذ القرن التاسع عشر ، ويعيدون تأسيس الهيكل المقدس ؛ وفى هذا القرن الأخير ، نشأت الصهيونية كمنظريّة سياسية ( أيديولوجية ) لليهودية ، تعمل على إعادة إقامة دولة لليهود . ومع الوقت ، ومداعبة الآمال ، واستغلال الظروف ، صارت الصهيونية أيديولوجية اليهود عامة ، عدا نُدرةً منهم . وبدأ اليهود جميعاً فى إنشاء الدولة ، بالهجرة أو بالمال أو بالنفوذ ، بعضهم يتعلق بذلك على أساس دينى ، وأكثرهم يقوم به على أساس تاريخى . ذلك بأن بعض اليهود يرون أن أرض فلسطين كلها هى أرض الميعاد التى وهبها الرب لهم منذ عهد أجدادهم ، وإلى امتداد أحفادهم ؛ بينما يرى آخرون أن حقهم على هذه الأرض كلها حق تاريخى ، بدأ منذ دخل إليها بنو إسرائيل الأوائل ، ثم أقاموا فى الشمال دولة إسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، وأقاموا فى الجنوب دولة يهودا وعاصمتها أورشليم ؛ وهم يضيفون إلى ذلك أنه منذ أخرجوا من أراضيهم لم تقم فى أرض فلسطين دولة قط ، ولم تكن القدس ( أورشليم ) عاصمة لأى دولة .

تجمع اليهود إذن على مشروع واحد ، هو إنشاء دولة إسرائيل التى تكون أورشليم ( القدس ) عاصمة لها ، وتحتل كل أرض فلسطين ، وسواء عن اعتقاد دينى أم على تقدير تاريخى فإن الجميع اعتنقوا الصهيونية كأيديولوجية سياسية . والأيديولوجية - كما هو مستقر علمياً - تقوم أساساً

على مبدأ الإطلاق ، بمعنى أنها تؤمن أن ما تعتقد فيه مُطلَق لا مطعن عليه ، ونهائي لا جدال فيه ، بهذا كانت ضراوة أعمال العنف والإرهاب التي قامت بها بعض المنظمات الصهيونية العسكرية ضد العرب المسلمين والمسيحيين ، لها في المنطق اليهودي ما يبررها لهم ، فقد كانوا - فيما اعتقدوا - ينفذون أوامر الرب أو كانوا يحققون وضع التاريخ . وإذا كان اليهود - على مدى العصور - قد تمهروا في ستر أهدافهم وتمرسوا على طي أغراضهم ، طالما كانوا يعيشون في جو معادٍ وقيمون مع جماعات غير مصادقة ، فإنهم درجوا في كل ما يتصل بإنشاء واستقرار الدولة على إخفاء أهدافهم البعيدة وتمويه أغراضهم الحقيقية ، فكانوا يعدون للحرب وهم يتكلمون عن السلام ، ويعملون على نقض قرارات المجتمع الدولي ( الأمم المتحدة ومجلس الأمن ) وهم يطالبون بتنفيذها .

أما العرب ، وهم الطرف المقابل في المعادلة ، فقد كان من نتيجة الاحتلال الأجنبي الطويل لبلادهم ، وأسلوب حياتهم القبلي الذي لم يتغير كثيراً ، أن أصبح لديهم شعور عميق بالتخوف من الأجنبي وعدم الاطمئنان للغريب ، وهم يرون أن المستعمرين قد احتلوا بلادهم طويلاً لنزح ثرواتها ، وأنهم مازالوا يعملون من أجل هذا الهدف . وقد كان زرع إسرائيل في وسط العرب اتجاهًا مقصودًا من الاستعمار الغربي لفصل جانب من العرب عن جانب آخر ، ودق وتيد للغرب في صميم المجتمع العربي . والعرب الذين لم يُنسب إليهم اضطهاد لليهود ، منذ قامت الحضارة الإسلامية وحتى أنشئت دولة إسرائيل ، يعجبون لفكرة الاضطهاد هذه ، وربما لا يستسيغونها ، ولا يرون أنها يمكن أن تكون سببًا لإنشاء دولة يهودية على أراضيهم ، وبعد إبعاد سكانها من مسلمين ومسيحيين . ويرى العرب

أن وعد الله عن الأرض تحقق وتنفيذ ، ثم انتهى عندما نكث اليهود عهدهم مع الله ، وأن فلسطين أرض لأبنائها الذين عاشوا عليها قرونًا طويلة ، قبل ظهور الصهيونية ، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهودًا . غير أنه نتيجة أن العرب « ظاهرة صوتية » وأنهم يتصرفون كما لو كان الكلام بديلا عن العمل ، وأنه كلما علا الصوت زاد إرهاب العدو وتحقق ما يريدونه بقوة ، نتيجة لهذه الظاهرة غير السوية ، فقد تكلموا بعنف وارتفعت أصواتهم بشدة ، يشجبون أعمال العنف والإرهاب ، ويرفضون قرارات المجتمع الدولي ، ويتوعدون اليهود بالقائهم فى البحر ، وهى أمور لم تُقدم أبدًا ، وإنما فرغت قواهم وبددت طاقاتهم ، وصورت لليهود أن الكلام حقيقة سوف تقع ، وأن الصراخ طوفان سوف يغرقهم ، فزاد ذلك من إحساسهم بعدم الأمان .

وقد أدت الأيديولوجية اليهودية ( الصهيونية ) إلى مقابلتها بالأيديولوجية العربية ( القومية العربية ) ، التى وطأت بشموليتها واتجاهاتها المطلقة إلى أيديولوجية أخرى إسلامية ، هى الإسلام السياسى ، التى تقوم على النمط الشمولى وبأنها تمثل المطلق .

بهذا انتهى الوضع إلى صراع بين أيديولوجيات تؤسس على المفهوم الدينى أو تستوى على الحق التاريخى ، فإذا كان اليهودى يمارس الحرب أو يياشر الإرهاب دفاعًا عن حق يراه مقدسًا ، فإن العربى يهدد بالحرب وينفذ عمليات انتحارية إثباتًا لحق يراه مقدسًا كذلك . والصراع بين الأيديولوجيات المطلقة ، كما النزاع بين الآراء المقدسة ، ينشأ من التطرف ثم يزيد التطرف بحيث يصعب تمامًا أن يحدث فيه تقارب لوجهات النظر

أو أن تتحقق منه تسوية بين الطرفين ، مما يقيم ويغذى حالة « اللاحرب واللاسلم » أمداً طويلاً ، حتى تتحلل النظريات المطلقة تدريجياً ، وتتفكك المذاهب الجامدة شيئاً فشيئاً .

تداعت الأحداث وتسلسلت الوقائع حتى أوجدت حالاً ( حالياً ) أزمة ثقة حادة ومستعصية بين العرب وإسرائيل ، ذلك أن العرب من خلال التجربة الواقعية ، منذ وعد بالفور حتى الآن ، صاروا على يقين كامل من أن إسرائيل تهدف وتعمل على الاستيلاء على كل أرض فلسطين ، شيئاً فشيئاً ، وقضمة بعد قضمة ؛ ولعلها بعد ذلك تسعى إلى تحقيق شعارها القائم « من النيل إلى الفرات : أرضك يا إسرائيل » . وفى سبيل الوصول إلى هذه الغاية فإنها تتذرع بالأمن الذى يقتضى الاحتفاظ ببعض المناطق المجاورة من بلاد أخرى : كمرتفعات الجولان أو الشريط الحدودى فى جنوب لبنان ؛ لكن دواعى الأمن قد تتواصل وتمتد فإذا بإسرائيل تضم إلى هذه المناطق مناطق مجاورة لها ، وهكذا دواليك . وفيما يتعلق بالشرق أوسطية فإن كثيراً من العرب يرون أنها صيغة سياسية مأكرة لتقويض الجامعة العربية وتفكيك منظومة التعاون العربى ، وإدخال جسم أو أجسام غريبة ثقافياً ومعتقدياً ولغَةً إلى الكيان العربى ، لجذب بعض بلاده فى علاقات خاصة ، قد لا يكون فيها تكافؤ أو توازن ، وهى من ثم ، أى فكرة الشرق أوسطية ، تزيد من الشكوك ولا تفيد فى الحلول .

واليهود من جانبهم ، ومما قر فى أسماعهم من ظاهرة العرب الصوتية ، وما استكنّ فى نفوسهم من تهديداتهم الكلامية ، صاروا لا يأمنون لهم أبداً ، وهم أصلاً غير آمنين ، يعتقدون أن تمكين الفلسطينيين من إنشاء

دولة لهم سوف يدفعهم إلى طلب مناطق أخرى ، ثم مناطق تالية ، حتى ينتهوا إلى أن يطلبوا ويعملوا على تفويض إسرائيل نفسها لاستعادة أرضهم السلبية .

فى هذا الجو المفعم بعدم الأمان وعدم الثقة يصعب جداً إيجاد حلول على مستوى الشعوب ذاتها . فربما اتفقت حكومات فى معاهدات سياسية أو عسكرية تهدف بها إلى منع النزاع المسلح ، أو تأجيله أطول فترة ممكنة ؛ لكن هذا السلام الرسمى يظل على الدوام قلق غير مستقر ، يمكن أن ينقلب رأساً على عقب بانتخاب حكومة جديدة كما حدث فى إسرائيل أخيراً ، أو برصاصة تطلق على رئيس أو زعيم ، كما كان مناحم بيجين يردّد دائماً . ومن هذا المنطلق ، فإن التطبيع بين الشعوب لن يكون أمراً قريب المنال ، مادامت أزمة الثقة قائمة وحادة ومستعصية . قد تنشأ علاقات فردية بين أشخاص من الجانبين ، لسبب أو آخر ، لكن التطبيع الاجتماعى المشعب العلاقات والمتعدد المستويات لا يمكن أن يتحقق إلا بعد عمل جاد لإزالة أزمة الثقة بين العرب وإسرائيل ، كيما يحل محلها ضرب من الثقة وقدر من الأمان . وليس العبء فى ذلك على العرب وحدهم ، بل إن إسرائيل هى الطرف المساءل أولاً عن تبنى سياسة واقعية ، لا تقوم على مصلحة طرف مفرد ، وإنما تعمل على اكسباب ود الشعوب ومد جسور الثقة وبذر بذور التعاون ؛ بلا رغبة فى الانتشار السرطانى ، ولا عمل للتوسع والامتداد ، ولا تصرف فيه عدم الاحترام لمشاعر الغير وتاريخهم وحقوقهم الطبيعية .

وعندما تزول أزمة الثقة يمكن توطيد معايير جديدة للسلام ، لأن الحرب كارثة على الجميع ، سوف لا تقتصر نازها على الشرق الأوسط ، بل من المرجح أن يمتد لهيها بعيداً فى المكان وطويلاً فى الزمان .